الصناعات النسيجية الحرفية .. صراع من أجل البقاء

سوق الملح من أقدم أسواق الصناعات الحرفية في اليمن ويقع وسط صنعاء القديمة ويضم في أسواقه المتخصصة عدداً من الورش المرتبطة ببعض من المهن الحرفية التي تلاشت مع مرور الأيام ،وتأتي في مقدمة هذه المهن الصناعة النسيجية تلك المهنة التي اعتمدت في بدايتها على العمل اليدوي، ثم تطورت إلى ما يسمى الحياكة اليدوية المعتمدة على الآلات التقليدية الخشبية البسيطة التي مالبثت حتى اختفت هي الأخرى نتيجة المنافسة الشرسة من المنسوجات الصينية والهندية التي أغرقت السوق اليمنية بأسعار رخيصة جدا.

تحقيق /عبدالله الخولاني

كثير من الصناعات الحرفية التي اشتهر بها الحرفيون اليمنيون منذ مئات السنين أصبحت في خبر كان في ظل تفرج الجهات الحكومية المعنية بحماية هذه الصناعات باعتبارها جزءاً من الموروث الثقافي اليمني .ويقول محمدالمساجدي – حرفي-وعلامات الحزن مرسومة على وجهه أن الكثير من الصناعات الحرفية اختفت ومنها الصناعة النسيجية الحرفية التي لم تصمد طويلا أمام المستورد الذي غزى السوق اليمنية بأبخس الأثمان.

السجاد من التراث اليمني

وبدأت صناعة السجاد أو كما يسميه البعض البساط منذ قديم الزمان على أساس أن اليمنيين كانوا يعتمدون على فرش منازلهم بالسجاد والفرش المصنوع محليا المعتمد على صوف الأغنام .

اللحف

وتعتبر صناعة اللحف (الصمايط) إحدى أدوات الزينة عند اليمنيين قديما وتوضع على الكتف من الحرف التي تعرضت لصراع مرير من أجل البقاء والاحتفاظ بهويتها كفن يدوي في مواجهة التطور السريع في تكنولوجيا الصناعة النسيجية، وتعتبر تهامة(سوق بيت الفقيه) المركز الرئيسي لهذه الصناعة التي لاتزال تحاول البقاء أمام نظيراتها الهندية التي يتراوح أسعارها بين٥٠٠و١٥٠٠ريال مقارنة مع٢٥٠٠-٥٠٠٠ريال لليمني.

ويؤكد الحرفيون أن صناعة السجاد اليمني القديم قد اختفت وكذلك الستائر والردات النسائية التي تستخدم كغطاء للمرأة عند خروجها من المنزل وحلت محلها المستوردة المعتمدة على الطبع فيما أصبح اقتناء االسجاد والمفروشات القديمة مقتصراً على السائح الأجنبي والعربي وبعض اليمنيين .

وكان اعتماد الحرف قديماً يتم من خلال اجتماع لأهل الصنعة وشيخهم لرؤية وفحص أعمال الحرفي الجديد ،فإذا كانت على المستوى المطلوب يقيم الحرفي مأدبة اعتماد لجميع الحرفيين للاحتفال بانضمامه للمهنة أما حالياً فدخول المهنة يتم بصورة تلقائية بعد تعلمها.

وتجد الصناعات النسيجية الحرفية رواجاً في السوق المحلية من قبل السياح والأجانب المقيمين في صنعاء الذين يقبلون وينبهرون بجودتها وعملها اليدوي المتقن ويتهافتون عليها .

فيما تستخدم(اللحف) للتعليق بالغرف، وأحياناً يعتبرها البعض جزءاً مهماً وأساسياً في ديكور المكان خاصة في تهامة وزبيد التي تعتبر احد الأماكن المشهورة في هذه الصناعة ، وحينذاك تطلب لوحات بأشكال وتصميمات وأحجام معينة.

وفى ثنايا سوق بيت الفقيه لا يزال ينبعث عبق التاريخ وسحره الخلاب لينطلق في الفضاء الرحب عبر الملامح المعمارية للأبنية القديمة وعبر أولئك الرجال الجالسين فوق مقاعدهم المصنوعة من أشجار النخيل يحيكون خيوط (اللحف) في حركة رشيقة تنطق بكل مهارات الصانع.

واستطاع هؤلاء الحرفيون عبر تاريخهم الطويل أن يقرنوا سوقا باسمهم لتحمل سوق اللحف وتصبح مقصداً للسياح والزائرين من عشاق التراث والفن الجميل.

فترات زاهية

ومرت هذه المهنة بفترات زاهية كان الناس خلالها يقبلون على المفروشات الصوفية لجودتها وصحتها لخلوها من المواد الكيميائية حتى الأجانب المقيمين في صنعاء يحرصون على فرش منازلهم بالمفروشات اليمنية القديمة حتى لو كانت أسعارها مرتفعة إضافة إلى البدو الذين لازالوا يفضلون المنسوجات القديمة دون غيرها وكذلك تهتم بعض الفنادق بإكساب غرفها روح التراث من أجل إرضاء ذوق السائحين لذا تشتري منتجات المفروشات القديمة، وتزود بها غرفها.

أما الجمهور العادي من اليمنيين فلا يقبل على هذه المنتجات ، ولا يشترون إلا بعض العرائس اللاتي تتطلب تصميمات معينة في ستائر منزل الزوجية أو مفارش المناظر.

وسوق المفروشات القديم المعتمد على الحياكة لم يعد مثلما كان في الماضي فحركة البيع قلت كثيراً عما كانت عليه بسبب ظهور التكنولوجيا والماكينات التي أتاحت أقمشة ومنتجات مطبوعة بتصميمات وخطوط البساط اليدوية نفسها ولكنها أقل سعراً وهذا ما أدى إلى اندفاع الزبائن نحو الأرخص من دون الاهتمام بالفارق الكبير في الجودة وهذا ما أثر في الصناعة النسيجية الحرفية ودفع الكثير منهم إلى هجر مهنتهم خصوصاً أنها أصبحت تجارة موسمية لا تنشط إلا في فصل الشتاء موسم السياحة .

صناعات نسيجية تصارع من اجل البقاء

تعكس الصناعات اليدوية النسيجية طبيعة الحياة اليمنية والأحوال الاجتماعية والثقافية التي تتميز بها بلادنا لما تضمه من تنوع ثقافي وعادات وتقاليد يعكسها الحرفيون في نقوش وألوان زاهية تمثل العادات والتقاليد اليمنية وقد احتفظت بعض المناطق اليمنية بهذا الفن الأصيل .

اشتملت المنتجات النسيجية على أنواع المفروشات والأغطية التي كان اليمنيون يستخدمونها في حياتهم اليومية والتي كانت موادها الأولية بسيطة كشعر الماعز وصوف الأغنام، إضافة الى بساطة الأدوات المستخدمة في الصنع. وكان للمرأة اليمنية دور بارز في هذه الصناعات من خلال نصب آلة النسيج والغزل والتلوين على عاتقهن، إضافة إلى مهارتهن ودقتهن وذوقهن في هذه الصناعات.

اختفاء

ولكن ما لفت الأنظار ضمور هذه الصناعات في هذا اليوم وقلة حرفييها، فهل يعود ذلك إلى تطور العصر ودخول المنسوجات الحديثة التي تواكب العصر لبيان ذلك التقت (الثورة) مع احد الحائكين الحرفيين في هذا المجال الحاج محمد المغربي صاحب محل لبيع المنسوجات اليدوية القديمة ، حيث قال: لقد ورثت هذا العمل من أبي وجدي وقد عملت مدة خمسة وأربعين عاماً في هذا المجال ومازلت أحترف هذه المهنة في داري وألقنها لأولادي من بعدي لكونها إرثاً يتميز به المجتمع اليمني.

وتعد هذه الصناعة من الصناعات الريفية التي تزاول لسد حاجة الأسرة، إضافة إلى تحقيق أغراض تجارية عند بيعها، فقد ظل طابعها ريفيا بشكل غالب وبعيداً عن الطابع الصناعي الحديث، وإن المجتمع اليمني وخاصة الريفي كان خلال العقود والقرون الماضية ذا اقتصاد مستقل وكان لهذه الصناعة أهمية كبرى من الناحية الحياتية والحضارية وإن المرأة اليمنية أدت دوراً مهماً في هذا المضمار.

إن هذه الصناعات تعتمد على آلتين رئيسيتين الحياكة والغزالة ويستخدم لنسيجها صوف الخروف وشعر الماعز، وكذلك (الكرك)وهو نوع من الجاكتات تصنع من صوف الماعز والخرفان ويسيطر عليه اللون الأسود .

النوع الآخر كما ذكرت آلة الغزالة كما تسمى أيضاً تكتسب أهمية كبيرة كأهمية الحياكة إذ أنها تسخر لصناعة أنسجة مختلفة ذات أهمية كبيرة للحياة اليمنية الريفية ويختص رجل ماهر في العمل على هذه الآلة التي يكون إنتاجها بالمفرد.

وتتسم الغزالة ببساطة متناهية في تكوينها وعملها حيث تتألف من عمودين يثبتان بجوار الحائط . ويربط عمودان آخران بطرفي العمودين الرئيسيين (الأعلى والأسفل) وذلك لتثبيت السداة حيث يتم عمل هذه الآلة بإدخال خيوط اللحمة بين خيوط السداة بواسطة إبرة كبيرة ثم تضغط الخيوط بمشط ثقيل لكي تتلاحم.

وأضاف الحاج المغربي: إن أهم منتجات الفرش هو نوع من السجاد كان يستعمله القرويون المتمكنون وبالرغم من انه شبيه البساط على وجه العموم إلا أنه يكون أغلى سعرا نظرا لاستهلاكه كمية كبيرة من الصوف، إضافة الى طول الوقت المستخدم لصنعه.

ويؤكد المغربي .. اليوم تعرضت اغلب هذه الصناعات اليدوية إلى الزوال وقلة الطلب على الشراء وأعتقد أن ذلك بسب ظهور المنسوجات المستوردة ذات التصاميم الحديثة، إضافة إلى قلة الحرفيين في هذا المجال فهناك أنواع من السجاد المصنوعة من الصوف الطبيعي قد انقرضت فاليوم برز دور المعامل وفق تصاميم حديثة وتقنيات عالية وهذا ما جعل هذه الصناعات تتقلص علما بأنها مرغوبة من قبل السياح.

وقسم من أبناء المجتمع التهامي ما زالوا يحافظون على هذا التراث خاصة صناعة اللحف ولتحقيق سياسة الحفاظ الناجحة لابد من وجود مجتمع مدرك ومتعلم كضرورة حتمية قبل إحداث عملية الحفاظ وليس بعدها وتتحدد الرغبة في الحفاظ على الموروث من قبل المجتمع نفسه خاصة الطبقة المتعلمة.

حول العالم

متابعة/عبدالسلام تامة

مصر: اتفاقيات تعاون مع عدد من البعثات الأثرية الأجنبية

● بعد أكثر من تسعة أشهر على اندلاع الانتفاضة الشعبية التي نجحت في خلع الرئيس السابق حسني مبارك تعود العافية الى قطاع الآثار الذي عانى الاهمال والنهب والتخريب في غياب أمني عقب الاحتجاجات.

وتشهد الفترة القادمة تعاونا مع عدة بعثات أجنبية متخصصة في الترميم والتنقيب في كثير من المواقع الأثرية وبخاصة مدينة الأقصر الواقعة على بعد ٦٩٠ كيلومترا جنوبي القاهرة والتي كانت عاصمة لما يسميه مؤرخون وأثريون بعصر الامبراطورية المصرية (١٥٦٧-١٠٨٥ قبل الميلاد).

وقال مصطفى أمين العام للمجلس الأعلى للآثار في بيان أن المجلس منح موافقة لبعثة المركز البولندي للآثار وبعثة المعهد الالماني للآثار وجامعة بيزا الايطالية ومركز الدراسات الأثرية بمدريد وبعثة جامعة بازل السويسرية لإجراء الصيانة والترميم والتوثيق الأثري للفناء المفتوح لمعبد الدير البحري للملكة حتشبسوت بالاقصر اضافة إلى صيانة وترميم مقصورة حتحور وتماثيل أبو الهول والتماثيل الأوزيرية في معبد حتشبسوت.

وأضاف أنه سيتم تسجيل وترميم المقابر المكتشفة وعمل خريطة أثرية لموقع أكواخ العمال في منطقة وادي الملوك بالاقصر بعد دراسة وتوثيق العناصر الأثرية ودراسة البقايا الآدمية والحيوانية المكتشفة بالمقابر.

الصين: ٢٤ مليون سائح خلال إجازة العيد القومي

● سجلت السياحة الداخلية أثناء عطلة العيد القومي في الصين هذا العام نموًا بمقدار ٨٫٨٤ ٪ عن الفترة المثيلة من العام الماضي.

وأفادت تقارير أن عدد السائحين الذين تنقلوا في مختلف أنحاء الصين لزيارة معالمها زاد إلى ٢٤٫٣ مليون شخص ، زاروا ١١٩ موقعا أثناء الفترة من ١ إلى ٧ أكتوبر الجاري.

تجدر الإشارة إلى أن السياحة الداخلية تلعب دورًا مسيطرًا في الاقتصاد السياحي الصيني في فترة الخطة الخمسية الثانية عشرة "٢٠١١-٢٠١٥م.

البتراء تستقبل قرابة ٤٢ ألف سائح خلال سبتمبر الماضي

● استقبلت مدينة البتراء الأثرية ٤١٩٠١ زائر خلال شهر سبتمبر الماضي مقارنة مع شهر أغسطس الذي سبقه إذ بلغ ٢٢٨٤٩ زائرا، حسبما أوردت وكالة الأنباء الأردنية.

وأظهرت الإحصاءات الرسمية الصادرة عن سلطة إقليم البترا التنموي السياحي ارتفاعا في عدد الزوار الأجانب القادمين للبترا للشهر الماضي عن شهر أغسطس الذي سبقه. وبلغ عدد زوار المدينة من السياح الأجانب لشهر سبتمبر الماضي ٢٩٩٧٦ زائرا فيما زارها خلال شهر أغسطس ١٩٢٥١ زائرا أجنبيا. وبينت الإحصاءات كذلك ارتفاعا في إيرادات المدينة من تذاكر الدخول والخدمات خلال شهر سبتمبر الماضي إلى ما يزيد عن ١,٦ مليون دينار مقارنة مع مليون دينار خلال الشهر الذي سبقه.